بنية الرمز وجمالياته في النثر الصوفي

نص " رؤيا أبي زيد للبسطامي " أنموذجا

Symbol Structure and Aesthetics in Mystic Prose

The text of "The Vision of Abi Zaid of Bustami" as an example

د. أحمد خضرة* ،

جامعة الشهيد حمّة لخضر-الوادي(الجزائر)،

khedourah1999@gmail.com

تاريخ الاستلام: **2020.12.22**

تاريخ القبول : **2020.12.27**

تاريخ النشر : **2021.02.24**

ملخص

يشكل الخطاب الصوفي رافداً هاما من روافد البيان العربي ذو أساليب مبتكرة منذ القديم، فكان ثورة مضامين وأشكال، فجّر اللغة ومع تنوع ألوانه فقد حمل رسالتين روحية وأخرى جمالية تمثلت في خصائصه الأدبية الفنية , وتتناول الدراسة قضية الرمز وبنيته في النص النثري الصوفي وأنواعه , وكشف القيم الجمالية الواردة فيه , من خلال دراسة تطبيقية لنص " رؤيا أبي يزيد " للبسطامي .

الكلمات المفتاحيّة: الصوفي؛ الرمز؛ النثر؛ الخطاب.

Abstract

The Sufi discourse is an important extension of the Arabic manifesto with innovative methods from the past. It was a revolution of contents and forms, the dawn of the language, and with its diversity of colors, it carried two spiritual and aesthetic messages, which were in its literary and artistic characteristics. The study deals with the issue of the symbol and its structure in the mystical text and its types, The aesthetic values of it, through an applied study of the text of "Revelation Abi Yazid" of Bastami.

Keywords: mystic; prose; symbol; aesthetic; speech; Revelation.

Url de la revue :
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/484

Ex PROFESSO

المجلد 06 ، العدد 01 ، السنة 2021

* - المؤلف المراسل.

مقدّمة:

يشكل التصوف أحد التيارات الرئيسية في الحياة الروحية الاسلامية , وقد ظهر منذ فجر الاسلام , وعلى الرغم من تنوع وغنى مضامينه وتنوع أشكاله التعبيرية منذ العصور القديمة ,و استعانة المتصوفة بالنثر القديم في قباستهم النورانية وتجاربهم الغر فانية الباطنة , لكن حظ الخطاب الصوفي النثري من الدراسة والنقد عند القدامى يسير جداً, ان لم نقل معدوما , لان ما تناولوه في كتبهم لا يعدو أن يكون تأريخا وتصنيفا وتدوينا للانطباعات العامة والذاتية عن التصوف بشقيه الشعري والنثري , وكان الاهتمام فقط بأبعاده الدينية والفلسفية والفكرية , واهمال أبعاده الفنية والبلاغية والجمالية , ناهيك عن طريقة تشكله ابداعيا وما احتوى هذا الابداع من مضامين معرفية متعددة , فاكتفت دراساتهم بذكر أخبار الصوفيين والتعريف بهم , ورواية بعض أقوالهم وشرح أفكارهم المذهبية .

" لقد ردّ هؤلاء سبب العزوف عن قراءة الادب الصوفي ونقده الى مخالفته لظاهرة الشريعة الاسلامية – حسب السلطة الحاكمة – التي كانت ترى في كل نقاش ونظر منبثق كمن رؤية جديدة زيغا وزندقة وخروجا عن الدين"[1] وذلك خاصة حين تبلور في مذاهب فكرية كالحلول في مذهب الحلاج، والاشراق في مدرسة السهروردي، ووحدة الوجود في مدرسة ابن عربي، والشهود عند النفري ومدرسته.

كما ذهب بعض المستشرقين الى فكرة الربط بين الرؤية الصوفية والاديان الخارجية، وذلك عند " ربط التصوف ورده الى مؤثرات خارجية بعيدة عن القرآن والسنة، اذ أرجعوا التصوف الاسلامي الى مصادر خارجية كالمسيحية واليهودية والبوذية والافلاطونية المحدثة " [2]

I. النثر الصوفي:

لا ريب أن النثر الصوفي في جملته أدب يعبر عن الإسلام ويستمد منه روحه ويرجع إليه "وليس لذلك من أثر في الأدب الصوفي إلا اتساع المعاني وتناول الأفكار التليدة والطريقة، فالصوفية الكثير من الأدب في المناجاة الإلهية وأدب الحوار البليغ والحكمة الصادقة والتجربة الواسعة والخبرة العميقة بالحياة والنفس الإنسانية" [3] وبخاصة الحلاج والشيخ الأكبر محمد الدين بن عربي.

ثم إنه "ولا ريب أن الأدب الصوفي في أكبر صوره أدب مستمد من روح الإسلام وما نلمحه فيه من معاني فلسفية وحكم غير عربية حينا ومن تأثر بالثقافات الدخيلة المترجمة إلى العربية حينا اخر – راجع إلى ثقافات الصوفيين التي تضمخوا بعطورها وإلى روح المتصوف وحده

وليس لذلك من أثر في الأدب الصوفي إلا اتساع المعاني أمامه ونتغول لكل الأفكار القديمة والطريقة التي يصوغ له ذوقه أن يتناولها" [4] .

II. ألوان النثر الصوفي:

إن للصوفية الكثير من الألوان الأدب العالي ومنها:

II .1. المناجاة:

وهو الأدب الذي اخترعته الصوفية في مناجات الله تبارك وتعالى وخطابه والتحدث إليه ,وهو أدب يحدث العقول بجماليته وبلاغته وسحره وروعته , وهو لون من ألوان النثر الصوفي "[5] , ومن نماذجه ما قاله معروف الكرخي في مناجاة رب العزة "سيدي بك تقرب المتقربون في الخلوات ولعظمتك سبحت الحيتان في البحار الزاخرات ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات أنت الذي سجد سواد الليل وضوء النهار , والفلك الدوار والبحر الزخار والقمر النوار والنجم الزعار وكل شيئ عندك بمقدار لأنك العلي القهار "[6] فهي تدل على عمق الإيمان وفرط التعلق بالذات الإلهية والعلية من أجل الكشف والنورانية ,وهم يعترفون بفقرهم وحاجتهم إلى خالقهم.

II.2. الدعاء:

وهي الدعوات التي يدعو بها الصوفي ربه طالبا رضاه وهذا الدعاء الذي جاء على السنة المتصوفة يعد أدبا رفيعا في متانة أسلوبه وقوة ألفاظه ورصانة معانيه.

ومن ألوان الدعاء والتسبيح يقول السهروردي في دعاء له "سبحانك ما عبدناك حق عبادتك يا من لا يشغله سمع عن سمع بسخائك أنك المتجلى بنورك لعبادك في أطباق السماوات[7]

II.3. الوصية :

وهي العبارات المشتملة على كثير من العبر والحكم والمواعظ النابعة من قلب الامام الكبير الفياض بالنور والمعرفة والهداية، فيها هداية لكل مؤمن يريد أن يزكي نفسه ويربيها اذا التزم بها " [8] .

II.4. فن المناقبة :

: هو علم نشأ حديثا عند الصوفيين، وقد ذاعت كتب المناقب ذيوعا كبيرا , فهي تتعرض لمناقب الاولياء الصالحين من الصوفية خاصة في عصر المماليك والاتراك , كما ذاعت كتب طبقات الصوفية وكثر التأليف فيها .

II.5. الرثاء :

أثرت عن الصوفية مراث بليغة رائعة تدل على روح ديني وذوقي صوفي والهام عميق، وهناك مواقف للصوفية في الرثاء كثير، ولم تر من اهتم بها ممن جمعوا المتخير من الرثاء , ونظروا كيف تكون جودة المعنى وقوة السبك ومتانة الديباجة .

II.6. الحكمة :

وهي فن من فنون الادب العربي جاءت في ثوب نصيحة متمخضة عن تجارب في الحياة، بيد أن الصوفيين صبغوها بصبغة روحية والبسوها ثوبا قشيا من الورع والزهد [9].كما نجد التقوى متمثلة في حكم بن عطا الله السكندري.

II.7. أدب الزهد :

ان التصوف امتداد للزهد والاعراض عن مباهج الحياة، والانصراف الى الله تعالى بقلوبهم ونفوسهم، قال الشريف الرضى، أقول " واذا تأمّل المتامل قوله عليه السلام: من أبصر بها بصرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته، ولا يدرك غوره، ولا سيما اذا قرن اليه قوله، ومن أبصر اليه أعمته [10].

II.8. الوصايا:

ان التصوف امتداد للزهد والاعراض عن مباهج الحياة، والانصراف الى الله تعالى بقلوبهم ونفوسهم، قال الشريف الرضى، أقول " واذا تأمّل المتامل قوله عليه السلام: من أبصر بها بصرته وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد ما لا تبلغ غايته، ولا يدرك غوره، ولا سيما اذا قرن اليه قوله، ومن أبصر اليه أعمته [11].

II.9. الشطح :

الشطح يظهر عند الصوفي عندما يكون في قمة تعلقه بالله , كما يكون يتعلق الصوفي بما يعرف دون أن يحس فهو يهذي , ويشطح في أفكاره وكلماته بعيدا , وهو تحرك نفسي وجسدي وعقلي قبل أن يكون تحركا لغويا فهو غلبة الوجد على الشكر والشكر بخمر المعرفة , ويؤكد أدونيس أن " الشطح لغة كونية , لغة ينطق بها الكون عبر ناطقها الصوفي , والنص الصوفي ليس كلاما بل هو عمل (صنع) سيميائي تحويلي غايته المشاركة في سرّ الخلق الاول " [12], اذن فهو اتحاد الانسان العاشق بالله المعشوق , وهو كلام يقوله الصوفي في حالة فنائه عن ذاته , وبقائه بذات الحق .

III. الرمز في النثر الصوفي:

ان النثر الصوفي يتأسس أولا على الرمز بسبب عامل التجربة الصوفي الخاصة , فالأفكار والاسرار الصوفية أدق وأخطر من توجه للعامة صريحة , لذلك كان الرمز أحد حلول اشكالية كبيرة واجهتها الظاهرة الصوفية , والرمز عند الصوفيين هو التلميح الى ما يريدون قوله ومنه الاشارة والاستعارة والكناية والتشبيه , فبالرمز تحفظ أسرارهم وتؤتمن معانيهم وحقائقهم الجوهرية خوفا من أهل الظاهر , يقول القشيري :" وهذه الطائفة (الصوفيون) مستعملون ألفاظا بينهم قصدوا بها الكشف لتكون معاني الفاظهم مستهبة على الاجانب غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في أهلها " [13]

والرمز طريقة من طرائق التعبير يحاول بواسطتها الصوفيون محاكاة رؤاهم ونقل تصوراتهم عن المجهول والكون والانسان ووصف العلاقة بين الانسان والله، والعلاقة بين الانسان والكون.

وفي الصوفية كل شيء ركز لكل شيء، وقد يكون الشيء رمزا لنقيضه، والموت رمز للحياة لان مفهومهم للموت هو أنه حياة أخرى، الفرح متضمن في الحزن والسعادة في الشقاء، والراحة في التعب، ذلك لان العارض الصوفي يرى الجمال في تجليات الجلال الظاهر.

والكون والوجود، مجاميع هائلة لرموز لا تنتهي واشارات لا يحد غموضها، وفي كلام الصوفية الرمز هو من " الالفاظ المشكلة الجارية ومعناه معنى باطن مخزون تحت كلام ظاهر لا يظفر به الا أهله، ويكاد الرمز الصوفي يرادف الاشارة وهي ما يخفى عن المتكلم كشفه بالعبارة للطاقة معناه كما يرادف الايماء، وهو الاشارة "

IV. شكال الرمز الصوفي:

ان استقراء الرموز الصوفية من حيث صياغتها ومادة تركيبها يكشف عن ثلاثة أنواع من الرموز:

الرمز الذهني: هو تركيب لفظي وعادي، ولا يستمد من الواقع بل الى الذهن، حتى يبدو النص كأنه لا رمز فيه كونه مبنيا أساسا على رمزكبير هو اللقاء بين الصوفي والله، ففي نص للبسطامي يقول " رضعت مرّة حتى أقمت بين يديه , فقال لي يا أبا زيد ان خلقي يريدون أن يروك قال أبو زيد : فزيّني بواحدنيتك حتى اذا رآني خلقك قالوا : رأيناك فتكون أنت ذاك ولا أكون أنا هناك , قال أبو زيد : ففعل ذلك فأقامني وزيّنني ورفعني ثمّ قال : اخرج الى خلقي فلما خطوت غشي عليّ فنادى : ردّوا حبيبي فانه لا يصبر عنّي "[14].

الرمز الحسي: هو رمز مباشر يقع في غالبه في كلمة واحدة، وهو مكثف في بيان موجز , كرمز الطير في نص البسطامي , يقول " ولما وصلت الى وحدانيته , وكان أول لحظة الى التوحيد أقبلت أسير بالفهم عشر سنين حتى كلّ فهمي فصرت طيراً جسمه من الاحدية وجناحه من الديمومة " [15], فالطير هو طير معنوي فضاؤه النص ووسائل ادراكه القلب والذوق عند الاديب الصوفي بالإضافة رموز البحر والفراش .

الرمز المجازي: هو المعاني الثواني التي احرزها المجاز لان المجاز هو التعبير غير المباشر" [16]وهو الايحاء والاشارة ومنه الاستعارة والكناية والمجاز المرسل، وهو مجال لتعدد المعنى، وهو رؤى الصوفيين التي تعكس ابتكاراتهم اللغوية وأفكارهم الوليدة بعد أن كشفوا ذاتهم، ومن الرموز التي وظفوها في أدبهم : المرأة , وهي رمز لطبيعة الهية خالقة , والماء وكل مشتقاته كالبحر والنهر والنبع ويعتبرونه عنصراً من عناصر الجنة والنور والخمر ...وغيرها

V. نص " رؤيا أبي زيد " للبسطامي، من كتاب " المعراج "

فهذا ما حكى أن خادم أبي يزيد رضي الله عنه قال: سمعت أبا يزيد البسطامي رضي الله عنه يقول: إني رأيت في المنام كأني عرجت إلى السماوات قاصداً إلى الله، طالباً مواصلة الله سبحانه وتعالى، على أن أقيم معه إلى الأبد، فامتحنت بامتحان لا تقوم له السماوات والأرض ومن فيهما، لأنه بسط لي بساط العطايا نوعاً بعد نوع، وعرض علي ملك كل سماء، ففي ذلك كنت أغض بصري عنها، لما علمت أنه بها يجربني، فكنت لا ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربي، وكنت أقول في ذلك: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، قال فقلت له: رحمك الله صف لي مما عرض عليك من ملك كل سماء قال: رأيت في المنام كأني عرجت إلى السماوات، فلما أتيت إلى السماء الدنيا فإذا أنا بطير أخضر، فنشر جناحاً من أجنحته، فحملني عليه وطار بي حتى انتهي بي انتهائي إلى صفوف الملائكة، وهم قيام متحرقة أقدامهم في النجوم يسبحون الله بكرة وعشياً، فسلمت عليهم، فردوا علي السلام، فوضعني الطير بينهم ثم مضى فلم أزل أسبح الله تعالى بينهم، وأحمد الله تعالى بلسانهم وهم يقولون: هذا آدمي لا نوري إذ لجأ إلينا وتكلم معنا، قال: فألهمت كلمات، وقلت: باسم القادر على أن يغنيني عنكم، ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن من نعته وصفته، فعلمت أن ربها يجربني، ففي ذلك كنت أقول: مرادي غير ما تعرض علي، فلم ألتفت إليها إجلالاً لحرمته، ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء الثانية فإذا جاءني فوج فوج من الملائكة ينظرون إلى كما ينظر أهل المدينة إلى أمير يدخلها، ثم جاءني رأس الملائكة اسمه لاويد (اسم فارسي جعله اسماً من أسماء الملائكة)، وقال: يا

أبا يزيد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: أحببتني فأحببتك. فانتهي بي إلى روضة خضرة فيها نهر، يجري حولها ملائكة طيارة، يطيرون كل يوم إلى الأرض مائة ألف مرة، ينظرون إلى أولياء الله، وجوههم كضياء الشمس، وقد عرفوني معرفة الأرض، أي في الأرض، فجاؤوني وحيوني، وأنزلوني على شط ذلك النهر، وإذا على حافيته أشجار من نور، ولها أغصان كثيرة متدلية في الهواء، وإذا على كل غصن منها وكر طير، أي من الملائكة، وإذا في كل وكر ملك ساجد، ففي كل ذلك أقول: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، كن لي يا عزيزي جاراً من جميع المستجيرين وجليساً من المجالسين، ثم هاج من سري شيء من عطش نارياق، حتى إن الملائكة مع هذه الأشجار، صارت كالبعوضة في جنب همتي، وكلهم ينظرون إلى متعجبين مدهوشين من عظم ما يرون مني.

ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمة ربي، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى من صدق الإرادة في القصد إليه، وتجردي عما سواه، فإذا أنا بملك قد مد يده فجذبني، ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء الثالثة، فإذا جميع ملائكة الله تعالى بصفاتهم ونعوتهم قد جاؤوني يسلمون علي، فإذا ملك منهم له أربعة أوجه: وجه يلي السماء، وهو يبكي لا تسكن دموعه أصلاً، ووجه يلي الأرض ينادي: يا عباد الله اعلموا يوم الفراغ (لعلها الفزع)، يوم الأخذ والحساب، ووجه يلي يمينه إلى الملائكة يسبح بلسانه، ووجه يلي يساره يبعث جنوده في أقطار السماوات يسبحون الله تعالى فيها، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ثم قال: من أنت؟ إذ فضلت علينا، فقلت: عبد قد منّ الله تعالى عليه من فضله، قال: تريد أن تنظر إلى عجائب الله؟ قلت: بلى، فنشر جناحاً من أجنحته، فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل أظلم ضياء الشمس من ضيئها، ثم قال: تعال يا أبا يزيد، واستظل في جناحي، حتى نسبح الله تعالى ونهلله إلى الموت، فقلت له: الله قادر على أن يغنيني عنك، ثم هاج من سري نور من ضياء معرفتي أظلم ضوءها: أي ضوء القناديل من ضوئي، فصار الملك كالبعوضة في جنب كمالي، ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إلى ذلك إجلالاً لحرمته، وكنت أقول في ذلك: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى مني صدق الإرادة في القصد إليه، فإذا أنا بملك مد يده فرفعني ثم رأيت: كأني عرجت إلى السماء الرابعة، فإذا جميع الملائكة بصفاتهم وهيئاتهم ونعوتهم قد جاؤوني يسلمون علي، وينظرون إلى كما ينظر أهل البلد إلى أمير لهم في وقت الدخول، يرفعون أصواتهم بالتسبيح والتهليل من عظم ما يرون من انقطاعي إليه، وقلة التفاتي إليهم، ثم

استقبلني ملك يقال له: نيائيل، فمد يده وأقعدني على كرسي له موضوع على شاطئ بحر عجاج، لا ترى أوائله ولا أواخره، فألهمت تسبيحه وانطلقت بلسانه، ولم ألتفت إليه، ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمته، وكنت أقول يا عزيزي، مرادي غير ما تعرض علي: فلما علم الله تعالى مني صدق الانفراد به في القصد إليه، فإذا أنا بملك مد يده فرفعني إليه ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء الخامسة، فإذا أنا بملائكة قيام في السماء رؤوسهم في عنان السماء السادسة يقطر منهم نور تبرق منه السماوات، فسلموا كلهم علي بأنواع اللغات، فرددت عليهم السلام بكل لغة سلموا علي، فتعجبوا من ذلك، ثم قالوا: يا أبا يزيد: تعال حتى تسبح الله تعالى وتهلله ونعينك على ما تريد، فلم ألتفت إليهم من إجلال ربي، فعند ذلك هاج من سري عيون من الشوق، فصار نور الملائكة فيما التمع مني كسراج يوضع في الشمس، ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، وكنت أقول يا عزيزي، مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى مني صدق الإرادة في القصد إليه فإذا أنا بملك مد يده فرفعني إليه، ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء السادسة، فإذا أنا بالملائكة المشتاقين جاؤوني يسلمون علي ويتفخرون بشوقهم إلي، فافتخرت عليهم بشيء من طيران سري، ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليه، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي. فلما علم الله تعالى مني صدق الإرادة في القصد إليه، فإذا أنا بملك مد يده فرفعني، ثم رأيت كأني عرجت إلى السماء السابعة، فإذا بمائة ألف صف من الملائكة استقبلني. كل صف مثل الثقلين ألف ألف مرة، مع كل ملك لواء من نور، تحت كل لواء ألف ألف ملك، طول كل ملك مسيرة خمسمائة عام، وكل على مقدمتهم ملك اسمه برائيل، فسلموا علي بلسانهم ولغتهم، فرددت عليهم السلام بلسانهم فتعجبوا من ذلك، فإذا مناد ينادي: يا أبا يزيد: قف قف؛ فإنك قد وصلت إلى المنتهى، فلم ألتفت إلى قوله ثم لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، وكنت أقول: يا عزيزي مرادي غير ما تعرض علي، فلما علم الله تعالى مني صدق الإرادة في مقصدي إليه صيرني طيراً، كأن كل ريشة من جناحي أبعد من الشرق إلى الغرب ألف ألف مرة، فلم أزل أطير في الملكوت، وأجول في الجبروت، وأقطع مملكة بعد مملكة، وحجباً بعد حجب، وميداناً بعد ميدان، وبحاراً بعد بحار، وأستاراً بعد أستار، حتى إذا أنا بملك المرسى استقبلني، ومعه عمود من نور، فسلم علي ثم قال: خذ هذا العمود، فأخذته فإذا السماوات بكل ما فيها قد

استظل بظل معرفتي، واستضاء بضياء شوقي، والملائكة كلهم صارت كالبعوضة عند كمال همتي في القصد إليه، ففي كل ذلك علمت أنه بها يجربني، فلم ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربي الله تعالى.

ثم لم أزل أطير وأجول مملكة بعد مملكة، وحجباً بعد حجب، وميداناً بعد ميدان، وبحاراً بعد بحار، وأستاراً بعد أستار، حتى انتهيت إلى الكرسي، فإذا قد استقبلني ملائكة لهم عيون بعدد نجوم السماوات، يبرق من كل عين نور تلمع منه، فتصير تلك الأنوار قناديل، أسمع من جوف كل قنديل تسبيحاً وتهليلاً، ثم لم أزل أطير كذلك حتى انتهيت إلى بحر من نور تلاطم أمواجه يظلم في جنبه ضياء الشمس، فإذا على البحر سفن من نور، يظلم في جنب نورها أنوار تلك الأبحر، فلم أزل أعبر بحاراً بعد بحار حتى انتهيت إلى البحر الأعظم الذي عليه عرش الرحمن، فلم أزل أسبح فيه حتى رأيت ما من العرش إلا الثرى من الملائكة الكروبين وحملة العرش، وغيرهم ممن خلق الله سبحانه وتعالى في السماوات والأرض، أصغر من حيث طيران سري في القصد إليه، من خردلة بين السماء والأرض، ثم لم يزل يعرض علي من لطائف بره وكمال قدرته وعظم مملكته ما كلت الألسن عن نعته وصفته، ففي كل ذلك كنت أقول: يا عزيزي مرادي في غير ما تعرض لي، فلم ألتفت إليه إجلالاً لحرمته فلما علم الله سبحانه وتعالى من صدق الإرادة في القصد إليه فنادى: إلى إلي، وقال: يا صفي ادن مني، وأشرف على مشرفات بهائي، وميادين ضيائي، واجلس على بساط قدسي حتى ترى لطائف صنعي في آنائي، أنت صفيي وحبيبي، وخيرتي من خلقي، فكنت أذوب عند ذلك كما يذوب الرصاص، ثم سقاني شربة من عين اللطف بكأس الأنس، ثم صيرني إلى حال لم أقدر على وصفه، ثم قربني منه، وقربني حتى صرت أقرب منه من الروح إلى الجسد، ثم استقبلني روح كل نبي يسلمون علي ويعظمون أمري ويكلمونني وأكلمهم، ثم استقبلني روح محمد صلى الله عليه وسلم، ثم سلم علي، فقال: يا أبا يزيد: مرحباً وأهلاً وسهلاً، فقد فضلك الله على كثير من خلقه تفضيلاً، إذا رجعت إلى الأرض اقرأ لأمتي مني السلام، وانصحهم ما استطعت، وادعهم إلى الله عز وجل، ثم لم أزل مثل ذلك حتى صرت كما كان من حيث لم يكن التكوين، وبقي الحق بلا كون ولا بين ولا أين ولا حيث ولا كيف، جل جلاله وتقدست أسماؤه."

VI. بنية الرمز وجماليته في نص " الرؤيا "

هذه الرؤيا هي أول معراج صوفي، وهي رؤيا منام لا تأليف، وقد بدأ البسطامي نصه (معراجه) بحرف التشبيه " الكاف " في (كأنّي) وهو ما جعل الرؤيا وكأنها تتأرجح بين اليقظة

والمنام في لحظة توتر وشوق إلى الله فقد منحت النص جماليات التشويق والغموض و الرمز والغرابة.

فالنص ليس حقيقة ولا كرامة بل هو حلم،فهو وليد ذاتية البسطامي ولا نوع لهذا النص الأدبي الصوفي تجلت فيه طريقته في الكتابة ,وتميز البسطامي عن الإسراء والمعراج الحقيقي للرسول صلى الله عليه وسلم أن يلتقي في كل سماء بالملائكة ,لكنه في وصفهم له يستعمل العدد المتكرر ذو البنية اللغوية من خلال (ألف ألف) ,(ألف صف) ,(تطير كل يوم إلى الأرض مئة ألف مرة) وهو مازاد النص جمالية.

لقد تكررت اللازمة في النص» :لم يزل يعرض علي من الملك ما كلت الألسن عن نعته و وصفه،فعلمت أنه بها يجربني ففي ذلك كنت أقول: مرادي ما تعرض علي"[17] وتتكرر كحركة داخلية في النص لتكون أساسا في بنيته المعمارية التي تكونت بفضل أقسام السماوات السبع ومراحلها ,كما كانت اللازمة شكل ثابت يرتفع مرحلة بمرحلة إلى لقاء الله والإتحاد به محملا بالعاطفة والشوق إلى لقياه.

وفي تجربة الحب للبسطامي يتردد لفظ (الشوق) وقد ذكر الشوق أكثر من مرة ومرادفاتها: العطش والهياج والسر والنار والإشتياق وهي من أكثر ألفاض العربية إقترانا بالحب.

كما تدرج هذا الشوق وتطور فبدأ بـ: (شيء من عطش نار الشوق) ثم تحول إلى (عيون من الشوق) ثم دخل أبو يزيد في مباراة للشوق مع الملائكة، فافتخروا عليه بشوقهم لكنه فاز بشوقه في النهاية لأن السماوات إستضاءت به لأنه الشوق إلى معرفة الله فالشوق سلاح الصوفي في حربه لفراق محبوبه.

رؤيا السطامي تقوم على الخيال أساسا تجري أحداثها في عوالم السماوات السبع إذ يقدم تصورا رمزيا لها منذ أول النص ويتخيل ماهيتها ولعل أبرز ما فيها وصفه الرياض والأشجار والملائكة والبحار وغيرها.

كما أن الفناء في رؤيا أبي زيد إتحاد ففناء،وأنه كمال الإتحاد صحبة مع الله والفناء فناء فيه والكمال بقاء فيه ,يموت الإنسان عند البسطامي ليحيا الله ,ولقد عبر عنه في النص بمصطلحات عديدة من مثل "تجريد عما سواه" [18] و"كنت أذوب كما يذوب الرصاص ثم سقاني شربة من عين اللطف بكأس الأنس وقربني حتى صرت أقرب منه من الروح إلى الجسد"[19].

يتكرر في النص لفظ (النور) ومرادفاته: الضوء واللمعان والقناديل ,والنور هو رمز لمعرفة الله ولقد وظف الكاتب رمز النور ليخدم فكرة المعراج ,وهدف المعراج هو الوصول إلى النور لإن الملائكة الذين إلتقى بهم البسطامي نوريون ووجود الملائكة كضياء الشمس والأشجار من نور ,فالمعراج نوع من القصص الأدبي الرمزي أنشأه وأبدعه الصوف لإحتواء الخبرات الروحية والتصورات الدينية الصوفية ,ولقد بني النص كله على لون النور وحركته ورموزه ,يرى الدكتور نذير العظمة أن "قصة المعراج إنتقلت من قصة دينية إلى قصة رمزية والبسطامي هذا الصوفي الرؤيوي فتح الطريق أمام غيره من المتصوفة لإستغلال الطاقة الرمزية لهذه القصة" [20] ,ولقد تنوعت الصور التعبيرية في النص من خلال التعبير عن فكرة محورية هي المقارنة بين شوق الملائكة وشوق البسطامي وصيغة الصور بطريقة رمزية التي أبدع فيها من خلال الرموز الثلاثة للرمز الصوفي وهي:

- الرموز المادية: وتظهر من خلال ألفاظ:(الطير , الروضة , الأشجار , الماء , النور) فالطير رمز لتحقيق حلم البسطامي فهو وسيلة نقله من الأرض إلى السماء إنه رمز مادي لمرموز معنوي وأن الماء رمز تجسد في النهر والبحر ,فهو يرمز إلى الحياة والوجود والنهر يرمز إلى العلم والمعرفة ,وقد تحول في نهاية النص إلى بحر ثم بحار رمز لإتساع المعرفة ,وتنقل الكاتب بين هذه البحار حتى وصل إلى البحر الأعظم الذي عليه عرش الرحمان.

أما النور فهو أهم رموز هذا النص لأنه هدف المعراج المنامي والنور من أسماء الله تعالى فالله هو الهدف وهو رمز من رموز ,ومن رموز النور تولد قاموس لفضي منه (ضياء , قنديل ,سراج...إلخ) .

- الرمز المجازي: ويمثله رمز الخمرة ,ففي نهاية النص (الرؤيا) يسقي لله سبحانه وتعالى خمر المعرفة فيرتوي من الجمال الإلهي.

- الرموز الذهنية: ونجد ما إحتواه النص من صور إستقبال الملائكة والله للبسطامي :"مد يده وأقعدني على كرسي له موضوع على شاطئ البحر"[21] و"ملائكة سلمو عليا بأنواع اللغات"[22] و"علم الله سحانه وتعالى مني صدق الإرادة فنادى إلي وقال: يا صفي إدن مني واجلس على بساط قدسي...ثم سقاني...ثم قربني"[23] فهي صور ورموز ذهنية ترمز إلى مكانة البسطامي عند الله سبحانه وتعالى.

خاتمة

وأخير فالرموز كلها منتظمة في سياق رمز كبير وعام ألا وهو (المعراج) ,فالرؤيا هي معراج خاص عرض فيه الكاتب تصوراته الصوفية الخاصة كما حافظ على الوظيفة الأساسية وهي الوظيفة الدينية من خلال الدعوة إلى الله والنبي صلى الله عليه وسلم ,وعلى الوظيفة المعرفية التعليمية التي تضمنها النص.

الهوامش :

[1] زايد , محمد (2011) , *أدبية النص الصوفي بين الابلاغ النفعي والابداع* الفني , ط1 , عالم الكتب الحديث , الاردن , ص 300.

[2] السلمي , أبو عبد الرحمان, (1960) , *طبقات الصوفية* , طبعة ليدن , ص. 153.

[3] الخطيب, علي ,(1404) , *إتجاهات الأدب الصوفي* , دار المعارف , القاهرة , د.ط, من المقدمة

[4] نفس المرجع السابق ,ص.50.

[5] نفسه ,ص .50.

[6] خفاجي, محمد , *دراسات في الأدب الصوفي* , الجزء 1 , د.ط , د.ت , ص ص137. – 138.

[7] الخطيب, علي , *إتجاهات الأدب الصوفي* ,مرجع سابق ,ص64

[8] بن عربي, محي الدين: *أدب الوصايا* , ط2 , دار الايمان , 1408ه / 1988 م , ص 348 , بتصرف .

[9] علي الخطيب, مرجع سابق , بتصرف .

[10] *نهج البلاغة* للامام علي رضي الله عنه , شرح الامام محمد عبده , ج1 , مكتبة الاندلس , ط1 , 1374ه – 1954م , ص 158.

[11] نفس المرجع السابق.

[12] أدونيس, *الصوفية والسريالية* , دار الساقي . ط1 , بيروت , 1992م , ص 132.

[13] يونس ,وضحى ,*القضايا النقدية في النثر الصوفي* , منشورات اتحاد الكتاب العرب , دط , 2006 , دمشق , ص 106.

[14] السهلجي , *النور من كلمات أبو طفير* , تحقيق الرحمان بدوي , نشر ضمن (شطحات الصوفية) , نشر وكالة المطبوعات , ط2 , الكويت , ص 149.

[15] نفسه , ص 152.

[16]. يونس ,وضحى , مرجع سابق , ص 116.

[17] المرجع نفسه ,نص المعراج , ص130.

[18] نص الرؤيا للبسطامي , ص.131

[19] نفسه , ص132

[20] العظمة , نذير ,*(1982)* , *المعراج والرمز الصوفي* , دار الباحث , بيروت , ط1, ص ص. 34-35.

[21] نص الرؤيا للبسطامي ,ص131

[22] نفسه , ص 133

[23] نفسه ,ص133

المراجع :

زايد, محمد ,(2011) ,*أدبية النص الصوفي بين الابلاغ النفعي والابداع الفني* , ط1 , عالم الكتب الحديث , الاردن.

السلمي ,أبو عبد الرحمان ,(1960) ,*طبقات الصوفية* , طبعة ليدن .

الخطيب, علي,(1404 ه) ,*اتجاهات الأدب الصوفي* , دار المعارف , القاهرة , د.ط.

خفاجي ,محمد , (1992) ,*دراسات في الأدب الصوفي* , الجزء 1 , د.ط , د.ت .
بن عربي ,محي الدين , (1988) , أدب الوصايا , ط2 , دار الايمان.
نهج البلاغة للامام علي رضي الله عنه , (1374 هـ – 1954م) ,شرح الامام محمد عبده , ج1 , مكتبة الاندلس , ط1 .
فضل ,صلاح,(1996) , *بلاغة الخطاب وعلم النص* , الشركة المصرية للنشر , لونجمان , ط1.
سعاد ,الحكيم,(1411 هـ / 1991م), *ابن عربي مولد لغة جديدة* , دندرة للطباعة والنشر , ط1 .
أدونيس, ,(1992),*الصوفية والسريالية* , دار الساقي . ط1 , بيروت.
يونس ,وضحى ,(2006) , *القضايا النقدية في النثر الصوفي* , منشورات اتحاد الكتاب العرب , دط , دمشق .
السهلجي ,النور, (1978),*من كلمات أبو طفير* , تحقيق الرحمان بدوي , نشر ضمن (شطحات الصوفية) , نشر وكالة المطبوعات , ط2 , الكويت.
المعراج,القشيري ,(1964), *تحقيق علي حسن عبد القادر* , دار الكتب الحديث, ط1 , القاهرة.
العظمة ,نذير ,(1982) ,*المعراج والرمز الصوفي* ,دار الباحث ,بيروت ,ط1.

لنقتبس من المؤلف:

خضرة، أحمد ، (2021) ، *بنية الرمز وجمالياته في النثر الصوفي .نص " رؤيا أبي زيد للبسطامي " أنموذجا* ،المجلد 06، الرقم 01 ، https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/48